مجلة الآداب، م٣٠، ع١، ص ص ١٤١-١٦٠، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٨/ ١٤٣٩هـ)

جهود "يوسف الخال" في حركة الحداثة النقدية

عدنان علي محمد الشريم

أستاذ مساعد بقسم مهارات تطوير الذات، عمادة السنة التحضيرية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ٥/ ١١/ ١٤٣٧هـ، وقبل للنشر في ١٢/ ٣/ ١٤٣٨هـ)

الكلمات المفتاحية : الحداثة، النقد، مجلة شعر، الشعراء العرب الحداثيون، التراث.

ملخص البحث: يسعى هذا البحث الذي جاء تحت عنوان: "دور "يوسف الخال" في حركة الحداثة النقدية"، إلى الوقوف على دور الشاعر والناقد العربي اللبناني يوسف الخال في مسيرة حركة الحداثة الشعرية والنقدية العربية في القرن العشرين. إذ شكّل الخال علامة بارزة على صعيد الحركة الأدبية بشقّيها: الإبداعي، والنقدي على حد سواء، فهو من الناحية الإبداعية: يمثّل أحد أبرز الشعراء الحداثيين العرب في حقبة خمسينيات القرن العشرين، وهو من الناحية النقدية يمثل أحد أبرز المنظرين لحركة الحداثة الشعرية العربية التي رافقتها آنذاك. ويحاول البحث في بعض جوانبه الوقوف على أبرز الجهود النقدية التي سعى الخال إلى نقلها إلى الأوساط الأدبية والنقدية العربية، ولا سيَّما بعد اتصاله بأبرز أعلام الحركة الأدبية والنقدية الغربية أثناء إقامته في الولايات المتحدة الأمريكية (نيويورك) ضمن البعثة اللبنانية إلى الأمم المتحدة، وذلك في الحقبة الممتدة بين عامي (١٩٤٨- ١٩٥٥م). وقد استطاع الخال أن ينقل جهوده هذه إلى الأوساط العربية عبر مجلته "شعر" التي أسسها مع عدد من أعلام الشعر العربي الحداثي سنة ١٩٥٧م.

وقد تضمن البحث جملة من المحاور وهي: سيرة الخال الثقافية، وكذلك الخال شاعرًا وناقدًا، وتناول البحث مجلة الخال "شعر"، ثم تناول دور الخال والحداثة الشعرية، وموقفه كذلك من التراث واللغة.

وقد سعى الباحث إلى الإفادة من المنهج الوصفي الاستقرائي، علاوة على الانفتاح على بعض المناهج النقدية الحديثة كالمنهج التحليلي، الأمر الذي ساعدنا على تناول حيثيات البحث بأسلوب علمي نقدي. وأما ما يخص مصادر الدراسة ومراجعها فقد أفاد الباحث من مجمل الدراسات الحديثة التي اهتمت بتطور حركة الحداثة في الأدب العربي والغربي على حدٍّ سواء.

"Yousuf Alkhal's role in the Critical Modernity Movement"

DR. Adnan Ali Mohammad Al Shriem
Department of Self, development Skills ,Preparatory Year Deanship,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

(Received 5/11/1437H; Accepted for publication 12/3/1438H)

Keywords: modernist, critic, magazine poetry, modernists Arab poets, heritage.

Abstract: This research seeks to identify the role of the Lebanese poet and critic Yousuf Al-Khal in the march of the Arabic critic movement in the twentieth century. Al-Khal shaped a milestone in terms of the literary movement, in its both aspects; creativity and critic. From the creative side he is one of the most outstanding modernists Arab poets in the fifties of the twentieth century, and from the critic side he is one of the leading preachers for the modern poetry movement that came along at that time.

The research tries also to highlight the main critics' efforts which Al-khal tried to transfer to Arabian literary and critics, particularly after his contact with a group of well-known Western critics in the literary and critical movement during his stay in the United States of America (New York), while working with the Lebanese mission to the United Nations in the years between 1948 to 1955. Al-Khal was able to convey efforts to the Arabian communities through his magazine called " Shiār " (Poetry), which he established in 1957 with a number of well-known Arab modern poets.

The research has addressed a group of topics, that include the cultural biography of Yousuf Al-Khal, and his role as a poet and critic, likewise pointed out to Yousuf Al-Khal's magazine "Shiār". The research also indicated the part he played in the modernist poetry, then the attitude of Yousuf Al-Khal from the heritage, and finally his attitude from the language.

The research sought to take advantage of the inductive descriptive approach as well as keeping in the mind some of the new critical methods, such as the analytical method, the thing that helped us to address the aspects of this research in a scientific and critical approach. Regarding this research sources and references, the researcher benefited from overall recent studies, which focused on the evolution of the movement of modernity in the Arab and Western literature.

التمهيد

سيرة يوسف الخال الثقافية:

تظل سيرة الشاعر العربي اللبناني يوسف الخال (١٩١٧-١٩٨٧م) الثقافية، عصيّةً على هذه الفقرة التي نحن بصددها، إذ تحتاج سيرة الخال، إذا ما أردنا استعراض منابعها وجوانب تشكلها ومنعطفاتها إلى مساحة واسعة قد لا تتناسب وطبيعة هذه الدراسة المقتضبة. ولا بدّ من الإشارة إلى أن ثمة دراسة جادة استطاعت إلى حدٍّ بعيد، وبشكل لا يخلو من الإحاطة والشمولية، أن تغطي هذا الجانب من حياة الخال[١]. ومن المفيد-هنا-أن نعرّج بشيء من الاقتضاب على سيرة الخال الثقافية والأدبية.

ولد الشاعر يوسف الخال في ٢٥ كانون الأول عام ١٩١٧، في قرية "عَمّار الحُصُن" إحدى قرى وادي النصارى في شمال سورية. ثم نزحت عائلته إلى طرابلس (لبنان)، حيث تعلّم في المدرسة الأمريكية للصبيان، وأنهى المراحل الابتدائية والثانوية، ومن الكلية الأمريكية في حلب إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث درس الفلسفة على المفكر شارل ملك، ثم تسلّم رئاسة تحرير مجلة "صوت المرأة" سنة ١٩٤٧م من الصحافي الأديب رشدي المعلوف وسلّمها بعد عام إلى الأديب الشاعر فؤاد سليمان صاحب "درب القمر". انتقل الخال سنة ١٩٤٧م إلى الولايات المتحدة الأمريكية (نيويورك) ضمن البعثة اللبنانية إلى الأمم المتحدة برئاسة الدكتور شارل مالك. وفي أمريكا كانت له علاقات متينة مع أدباء وكتّاب وشعراء أمريكيين، حيث اطّلع بعمق على التجربة الأدبية من خلال مجلة (Poetry) وكل من الشعراء إزرا باوند (Ezra Pound) وولت ويتمان (Walt Whitman) وروبرت فروست (Robert Frost). أعجب الخال "بعزرا باوند" أيما إعجاب حتى إنه اتخذه قدوة ومثالًا على الصعيد الفني والأدبي مشبهًا إياه بالمسيح المخلص كما يستدل من قصيدته" إلى عزرا باوند" التي تتصدر "البئر المهجورة". وقد سبق للخال أن تسلم رئاسة تحرير "جريدة الهدى" الصادرة في نيويورك ١٩٥٢، وعمل لمدة وجيزة في مجلة" الصياد" ١٩٥٥، ليستقر به الحال مدرِّسًا للأدب العربي في الجامعة الأمريكية في لبنان. (أبو سيف، ٢٠٠٥م، ص١٥).

لقد اطّلع الخال أثناء إقامته في أمريكا، وهي الأعوام الواقعة بين (١٩٤٨-١٩٥٥م)، على مختلف

(١) تعد دراسة جاك أماتايسس السالسي: يوسف الخال ومجلته شعر، والصادرة عن بيروت، دار النهار بالتعاون مع المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ٢٠٠٤ إحدى أبرز الدراسات المطولة في حياة يوسف الخال الأدبية والثقافية. وقد سبق لجاك أماتايسس أن تقدم ببحثه هذا لنيل درجة الماجستير تحت إشراف البروفيسور صموئيل موريه في الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٩٥، ويعد هذا البحث الأوسع والأشمل في التعامل مع نشاط الخال، شاعراً ومنظّراً، وإنساناً.

أوجه النشاط الشعري الذي كان يشهد مع نهايات النصف الأول من القرن العشرين، حركات تجديديّة تؤسس للحداثة الشعرية. (انظر: بواردي، ٢٠٠٣م، ص٤٩)، ومن هنا فإنَّ من أهم المؤثرات الثقافية التي طبعت شخصية الخال الأدبية والفنية، تلك التحولات شبه الانقلابية التي عرّفها الشعر الإنجليزي على يد طائفة من شعراء الحداثة آنذاك.

لقد أصبحت السنوات الثمانية التي قضاها الخال في أمريكا، والتي تعرّف من خلالها إلى تطور الحركة الشعرية في أمريكا، نواة تجربة الشاعر الأدبية التي أثّرت فيما بعد على توجّهاته الأدبية، فيما يتعلق بالتعامل مع الموروث واللغة والتخطي. ويمكن القول في هذا الجانب، إنّ الخال كان قد وجد في الحضارة الغربية، بفلسفتها وتفكيرها المنطقي، الحل الأنسب للحاق الحركة الأدبية العربية بركب الحضارة العالمية. (انظر: بواردي، ٢٠٠٣م، ص٤٩-٥٠).

ولهذا، فإنّ الحركة الصورية التي أسسها الشاعر عزرا باوند (Ezra Pound) يمكن أن تعد من أهم هذه المؤثرات، التي طبعت شخصية الخال الأدبية والفنية "ومن مبادئها الرئيسة تحطيم التقاليد الشعرية في سبيل خلق شعر يلائم العصر، ومن ذلك تحرير الشعر من قيود العروض المألوفة معلنة أن النظْم يجب أن يكون وفق الإيقاع الموسيقي، لا وفق مقياس عروضي ما. كما دعت إلى استعمال اللغة التي يتخاطب بها صفوة الناس. وفي هذه الفترة انصرف يوسف الخال أيضاً إلى مطالعة الشعر الإنجليزي والأمريكي، ومن المحتمل أن يكون (ديوان الشعر الأمريكي) (١) الذي نشره عام ١٩٥٨، حصيلة تلك المطالعات، وقد أكّد الخال أنه كان يقوم بتجارب

(١) ديوان الشعر الأميركي: الذي جمعه يوسف الخال ونقله إلى العربية دون مساهمة مترجمين آخرين والصادر عن دار مجلة شعر في تشرين الثاني ١٩٥٨، في هذا الديوان نجد عرضاً لتطور الشعر الأميركي "من الكلاسيكية التقليدية إلى التعبير الذاتي الحر عن تجربة الحياة، من خلال أبرز أعلامه منذ القرن السابع عشر حتى القرن العشرين. وفضلاً عن تعريف القارئ العربي بالشعر الأميركي التي هي الغاية المعلنة الأولى، نجد أهدافاً أخرى يجلوها يوسف الخال في المقدمة، حيث يتبسط في الكلام على وولت ويتمان (W. Whitman)، (١٨١٩-١٨٩٢)، والإشادة بدوره الحاسم في إخراج الشعر من مرحلة التقليد ومعالجة الموضوعات المبتذلة، إلى مرحلة استلهام الحياة ومعاناة تجاربها. وذلك أنه أطلق الخيال من كل قيد قديم وأسلوب مألوف. يقول يوسف الخال:" بفضله [أي وولت ويتمان (W. Whitman)] انطلقت حركة "الشعر الحر" التي دعت إلى التخلص من الأوزان المألوفة واعتمادهم نغم خاص بالشاعر، يمنحه قدراً كبيراً من حرية التعبير عن تجربته الشعرية، كما يضفي عليها نعمة البساطة.[...] وبفضل ويتمان أيضاً عرف الأدب العربي هذا الأسلوب الشعري عن طريق أمين خولي الريحاني، وجبران. وهو الأسلوب الذي دعي منذ ذلك الحين بـ الشعر المنثور". (السالمي: ٢٠٠٤، ص ٢٠٨).

شعرية مستقلة بمعزل عن المحاولات التجديدية التي ظهرت في العالم العربي. وكان "ت. س. إليوت" T. S. Eliot(١٨٨٨-١٩٥٨) في طليعة الشعراء الذين ترجم أشعارهم متأثراً بأساليبه الفنية، خصوصاً في استعمال الأساطير والتلميحات والتاريخية". (السالسي،٢٠٠٤، ص٥٩).

يوسف الخال شاعراً وناقداً:

تبقى مسألة التعرض لقضية اشتراك المبدع الأدبي في العملية النقدية أمراً ذا أهمية، خصوصاً في هذا الجانب من الدراسة، وذلك لأنَّ الخال حاله كحال غيره من الشعراء، كان يمارس النشاطين الإبداعي والنقدي على السواء في مجلة "شعر".

وفي هذا الصدد يذهب "عبدالمجيد زراقط" إلى القول:" إنّ صلة النقد بممارسة الإبداع ينبغي أن تظل باستمرار حاضرة في الذهن، كما أنها تخولنا القول: إن الناقد- الشاعر كان النموذج الجيد الذي تنسب إليه الإجادة في النقد. وإن يكن هذا القول-الحُكم يصدق، بشكل دقيق وواضح على الشاعر-الناقد العربي، فإننا نجد في النقد الغربي أحيانًا ذلك التوحد الشخصي للشاعر الناقد، وبشكل بارز جداً في الأدب الإنكليزي، حيث نجد شعراء كـ "درايدن" و"وردزورث" و"كولريدج" و"ماثيو آرنولد" و"ت. س. إليوت" أهمّ علامات بارزة في النقد أيضاً".(زراقط،١٩٩١، ص ص٨٩، ٩٠).

إنَّ الإدراك المعرفي بالعمل النقدي لدى الخال سبقته ممارسة للإبداع الشعري، الأمر الذي أتاح له تمرساً أكثر عمقاً في خفايا الأثر الفني الشعري، هذا النموذج المزدوج المكمِّل، كان المسيطر على الشاعر- الناقد يوسف الخال، وكذلك الحال على تجمع مجلة "شعر"[1]. فقد يضطر الشاعر الحديث في حالات كثيرة إلى القيام بالدفاع عن نماذج كتابته، أو عن طريقه الإبداعي الجديد الذي قد يجابه في كثير من الأحوال بالرفض.

إنَّ ما ذهب إليه زراقط في تصنيفه للشعراء اللبنانيين وفق اتجاهاتهم النقدية، وهو ما أشرنا إليه آنفاً، يجعلنا نتوقف عند موقع الخال بشيء من الإيضاح، خصوصاً أنه موضوع هذه الدراسة، فقد كان الخال من بين الشعراء الذين يمارسون الفعاليتين المتميزتين- الإبداعية والنقدية، مازجاً بين المعرفة والخبرة وبين التعلّم والتعليم: إبداعاً وتنظيراً.- وهنا-

(١) يصنف عبدالمجيد زراقط في دراسته:" الحداثة في الشعر العربي المعاصر" في تقسيمه للشعراء اللبنانيين ممن عملوا في تجمع مجلة "شعر" وفق اتجاهاتهم النقدية كلاً من كإلياس أبو شبكة، وأنسي الحاج، وأمين نخلة في موقع عبثية النقد، وأدونيس، والخال، وخليل حاوي في موقع المزج بين المعرفة والخبرة والتعلّم والتعليم، ويوسف غصوب، وجورج صيدح، وجورج غانم، وشوقي أبي شقرا ضمن ملاحظات انطباعية وتعليقات وآراء سريعة. (انظر: زراقط، ١٩٩١، ص٩٠).

لا بدّ من الإشارة إلى أنَّ الخال كان لديه مفهوم مغاير لتلك الآراء التي تنفي أن يكون دور للنظرية النقدية في عملية الخلق؛ ومن هذه الآراء: "أن النظريات كلها لا تصنع شاعراً ولا تخلق قصيدة". وكذلك، "إن القصيدة الكبيرة تستخرج منها النظرية ولا تسبقها، وأنه يجب أن تنبجس النظرية من النص الكتابي. فالنظرية من هذه الزاوية عقيمة الفائدة، فما نفع أن تكتب قصيدة وفق هذه النظرية."(أدونيس، ١٩٧٩، ص١٥٧). إننا نجد المفهوم المغاير لهذه الآراء لدى الخال، حيث يقول:" لكن كان لنا مفهوم للقصيدة وعلى أساسه كنا نكتب القصيدة وننقد قصائد الآخرين.". (نقلاً عن: زراقط، ١٩٩١، ص ٩١، مجلة "المنار"، ع ٣٢/ ٣-٦، ١٩٧٨، ص ص١٨و١٩).

ومهما يكن ما عناه الخال من مفهوم القصيدة- الذي يكتب على أساسه القصيدة وينقد من خلاله قصائد الآخرين؛ فقد يعني مفهوم القصيدة، هنا شيئاً آخر لا يتطابق ومفهوم النظرية، كأن يعني الرؤيا الخاصة بمعناها العام، وليس مجموعة من المبادئ العامة المتناسقة التي تنبثق من التفحص الواعي لظاهرة معينة-فإنّ الوعي المسبق بهذا المفهوم أياً تكن درجته، يبقى له الدور الأكبر في عملية الإبداع الشعري. (انظر: زراقط، ١٩٩١، ص ٩١).

لقد مارس الخال النشاط النقدي بوصفه أحد الرواد الذين انطلقوا بالحداثة الشعرية من خمسينيات القرن العشرين. فالخال في هذا النشاط نراه يمتد إلى مسافات بعيدة، خصوصاً أنه يملك- كما أشرنا آنفاً- مفهوماً للشعر كان يصدر عنه ويمارس النقد انطلاقاً منه، وهو مفهوم كما يقول: " تعلمناه بالمعرفة والخبرة وعلّمناه بالقول والفعل. وهو لا يزال يتسع ويعمق ويضرب أصوله في التراث حتى يجعل الحد الحاسم الفاصل بين المفهومين القديم والجديد حداً حاسماً وفاصلاً حقاً."(الخال، ١٩٧٨، ص ٣٣).

ومن الجدير بالإشارة، أنّ الخال فيما يمارسه من نشاط نقدي، كثيراً ما يبدو ذا ثقة بقدرته على البحث ومعرفة أصوله؛ فأسلوبه ينطوي على علمية واطلاع واسع متفحص، وهو لا يطلق أحكامه هذه جزافاً، بل نجده يناقشها متسلحاً بالمعرفة والمتابعة لأصول النقد والتأليف قديمها وحديثها على السواء؛ فهو عندما يناقش كتاب الشاعرة نازك الملائكة "قضايا الشعر المعاصر" يبقى يوجه إليها كثيراً من الانتقادات والعثرات التي كثيراً ما وقعت بها أثناء إعدادها لهذه الدراسة، يقول الخال:" وضعت لدراستها عنوان "قضايا الشعر المعاصر"، وكم كانت خيبتنا مريرة حين أخذنا الكتاب وكدنا لا نعثر فيه على قضية جوهرية واحدة في الشعر العربي المعاصر[...] هذا إلى ما جاء في الكتاب من آراء ارتدادية متزمتة خانت "حركة الشعر الحر" التي تدّعي المؤلفة "اكتشافها" ومن معالجة بعض الموضوعات معالجة خالية من الروح

العلمية والإخلاص للحقيقة، وهما صفتان حاولت المؤلفة أن تقنع نفسها بأنها تتوخاهما في بحثها.

ثم يقول الخال: لا نريد أن "نتمرجل" على المؤلفة الشاعرة فنعلمها أصول التأليف، أو نرسم لها كيفية معالجة الموضوع. يكفي أن نقول لها الآن أن اسم الكتاب لا ينطبق على مسماه...". (الخال، ١٩٧٨، ص٣٣، ٣٤).

وليس هذا فحسب، بل يستمر الخال في الكشف عن عيوب كتاب الملائكة، فيقارنه بكتاب آخر في نقد الشعر الحديث، وهو كتاب **"قضية الشعر الجديد"** لمحمد النويهي، يقول الخال:" أما كتاب نازك الملائكة فيتردى بالانكفاء والرجعية والضيق-ضيق النفَس (بفتح الفاء لا تسكينها)، وإساءة الفهم-فهم الوزن العربي التقليدي، بل وزن الشعر عموماً وفهم اللغة العربية وإمكاناتها، وفهم الإنسان خصوصاً العربي، على أنه قادر على التغيّر والتكيف والتخطي. وأما كتاب النويهي فبخلاف ذلك تماماً. وهو على ما فيه من حدود، إسهامٌ قيّمٌ في إرساء قواعد حركة الشعر الجديد."(الخال، ١٩٧٨، ص٥٤).. من هنا، يتكشف لنا مدى إتقان الخال لأصول التأليف والبحث إلى حد "المرجلة" -على حد تعبيره.

إن ما يريده الخال للنقد " أن يقصر مجاله على نجاح المحاولة من حيث هي محاولة لا من حيث مراعاتها للقواعد والأصول الموضوعية"(مجلة الآداب، ع ١١، ١٩٥٩، ص ١٠٥). وهو في هذا، يتفق مع الشعراء الآخرين في أنّ القصيدة، بمعزل عن أي شفيع خارجي هي الأساس في النقد. ويريد الخال للنقد أيضاً أن يجيب عن أسئلة تتعدد بتعدد هموم الشاعر الحديث الساعي إلى التأسيس والتحول، فمسائل مثل: التجريب واللغة الشعرية والصِّلة بالتراثين: العربي والعالمي.. صارت هماً أساسياً له، إضافة إلى هم النقد الأساسي المعروف، وهو دراسة النص وتمييزه وتقديره... ومما يقوله يوسف الخال، في هذا الصدد: "يجب أن يعنى النقد المعاصر بالأسئلة التالية: هل هذا النتاج الشعري تجريبي؟ هل يعبر عن تجربة صادقة لمشكلة الشاعر-الإنسان ولقضايا العصر؟ هل يعي الشاعر مشكلة التعبير، أي اللغة؟ هل يشارك بصلته التراكمية الحميمة بتراث العرب الشعري في التجارب الشعرية الراهنة في عالم الحضارة؟... ماذا يريد الشاعر أن يقول، هل هذا جديد وهل قاله بنجاح وهل هو معاصر؟". "(مجلة الآداب، ع٢٢، ١٩٦٢، ص١٠٧، ١٠٨).

يوسف الخال ومجلته "شعر":

عاد يوسف الخال بعد إقامته في الولايات المتحدة (١٩٤٨-١٩٥٥)، إلى بيروت مسكوناً "بفكرة تجديد الشعر العربي"(خير بك، ١٩٨٦، ص٦٣). حيث ألحّت عليه آنذاك فكرة إصدار مجلة باسم **"شعر"**

تكون المقابل بالعربية مبدأً ومنهجاً لمجلة "Poetry" الأمريكية الصادرة عام ١٩١٢ بتوجيه من الشاعر "إزرا باوند"، وتولت تحريرها الشاعرة "هارييت مونرو" وكانت تهدف إلى إنعاش الشعر وتجديده. (لؤلؤة، مجلة شعر، ع٤٣، صيف، ١٩٦٩، ص٥٨).

وقد أجرى الخال عام ١٩٥٦ اتصالات عديدة مع العناصر الأدبية القادرة على الإسهام في خلق حركة شعرية حديثة، تلك التي ظلت تراوده في أثناء إقامته في الولايات المتحدة. وقد أسفرت هذه الاتصالات المتعددة عن تشكيل النواة التأسيسية-لما أصبح يُطلق عليه-تجمّع شعر. وفي هذا الصدد يقول كمال خير بك: "يوسف الخال، أدونيس، خليل حاوي، نذير عظمة: هؤلاء هم الشعراء الأساسيون الذين شكلوا نواة شعر في البداية، والذين سينضم إليهم عدد من النقاد الشبان: كأسعد رزوق وأنسي الحاج وخالدة سعيد."(خير بك، ١٩٨٦، ص٦٣).

لقد أعلن التجمع الذي أصبح يشكل النواة الرئيسة عن تأسيس "مجلة فصلية موجهة بصورة حصرية، لخدمة قضية الشعر والدفاع عنها، وحملت المجلة، بالفعل تسمية "شعر" وأصبح يوسف الخال نفسه رئيساً لتحريرها. وقد صدر عددها الأول في كانون الثاني عام ١٩٥٧.". (خير بك، ١٩٨٦، ص٦٤).

ظل يوسف الخال، منذ أن ظهر العدد الأول من مجلة شعر وحتى صدور العدد الأخير منها، رئيس تحريرها، وقد عرّفته المجلة لقرائها في عددها الثاني، وجاء في تعريفها: " يوسف الخال: تخرج في الفلسفة من الجامعة الأمريكية ببيروت حيث يدّرس الفكر والأدب العربي، أقام في نيويورك ثماني سنوات التحق خلالها بالأمم المتحدة، وعاد إلى لبنان عام ١٩٥٥، له: الحرية، هيروديا."(مجلة شعر، ع٢، ١٩٥٧، ص١٠٤).

إن الخال، رغم هذا التعريف، لم يكن شاعراً معروفاً إلا في نطاق ضيق لا يتجاوز أوساطاً لبنانية معينة، فالحرية (١٩٤٥) ليس إلا ديواناً يضم قصائد عمودية، وليس في هذه القصائد ما يميزها عن مئات، بل آلاف القصائد العمودية التي نشرت قبل صدور المجلة. أما "هيروديا" فمسرحية شعرية صدرت في نيويورك (١٩٥٤) ولا يكاد أحد في الوسط الشعري العربي يعرف عنها شيئاً. (انظر: مهدي، ١٩٨٨، ص١٨).

لقد هدفت حركة "شعر"، منذ بداية تأسيسها، وبصورة علنية إلى القيام بمهمة نقد الشعر العربي المعاصر وإعادة تقييمه، وأن تقدم ليس عملاً شعرياً "بديلاً" فحسب، وإنما، كذلك، أُسُسَاً وقواعدَ يجب الانطلاق منها في النقد وبناء الصورة الجديدة.

ولكي تتمكن حركة "شعر" من ممارسة أحكامها النقدية من إدانة أو قبول للشعر العربي المعاصر، فإنها تقتضي جملة من المبادئ والمعايير النقدية، التي يمكن

من خلالها ممارسة أنشطتها التي تنطوي عليها هذه الحركة بمجملها. ومن هنا فإن مراجعة مجموع منشورات تجمُّع "شعر" ومختلف المحاضرات والمقابلات والتصريحات التي أدلى بها أعضاء التجمُّع، وكذلك المؤلفات التي صدرت عنه- وهو أمر من غير الممكن في هذه الدراسة الوقوف عليه- تجعلنا نستخلص المبادئ والأسس النقدية التي ظلت حركة "شعر" تصدر عنها في نشاطها النقدي.

لقد شكّل بيان يوسف الخال الفعل الافتتاحي لحركة "شعر"، إذ يبدو ذا أهمية خاصة، لأنه يمثل الوثيقة الأولى في المرحلة الأولى من نشاط هذه الحركة. والمرجع الأولي لتصوراتها المجدَّدة. (انظر: خير بك، ١٩٨٦، ص ٦٥).

ففي العدد الثاني لمجلة "شعر" وتحت زاوية "أخبار وقضايا" نشرت المجلة ملخص محاضرة ليوسف الخال في اجتماع لمجلة **"محاضرات الندوة اللبنانية"** بعنوان "مستقبل الشعر العربي في لبنان"[1]. ومما يعرض الخال إليه في هذا البيان، تطور حركة الشعر اللبناني منذ مطلع القرن العشرين إلى أواخر سنوات الخمسين ليصل في استنتاجاته إلى أنّ "الشعر الحالي في لبنان ليس حديثاً إلا بالمعنى الزمني للكلمة. فهو متأخر بالقياس إلى الشعر الأوروبي، ومقلد بالقياس إلى التراث الشعر العربي."(خير بك،١٩٨٦، ص٦٧)، وقد تمثل الخال بشعر سعيد عقل في مجموعته "رندلي" للوصل إلى الخلاصة التي جاء فيها: "إن الشعر اللبناني الحاضر شعر تقليدي، وهو شعر متخلف عن هذا العصر. إنه في كلتا الحالتين شعر غير حديث. إن هذا الشعر لا يختلف في خصائصه الجوهرية عن الشعر العربي التقليدي. فعمود الشعر هو هو، ووحدة البيت لا القصيدة هي هي، الوزن والقافية لم يجر عليهما أيّ تعديل، الأغراض الشعرية القديمة، بالرغم من بعض المحاولات في المسرحية والقصص والملحمة، ما تزال هي الأغراض الشعرية الحاضرة والنظر إلى الأشياء أو الخبرة الكيانية في الحياة، وهذا هو الأهم، ما برحت تصدر عن عقلية اجترارية "عقيمة". "(خير بك، ١٩٨٦، ص٦٧)، وبمعنى آخر يرى الخال أن هذا الشعر لا يواكب الحركة الشعرية الغربية، التي أصبحت من منظاره معياراً للتطور والتقدم الشعريين. وقد جاء هذا في القسم الأول من البيان.

وما يهمنا في هذا الجانب من الدراسة ما جاء في القسم الثاني من البيان الذي يُعد من وجهة نظر النقاد والدارسين، التنظير الأول لحركة مجلة "شعر"، في مجال

(١) نُشر بيان يوسف الخال "مستقبل الشعر العربي في لبنان" في "محاضرات الندوة اللبنانية، مجلة "شعر"، ع٥، ١٩٥٧، ص ص ٣٦٧-٣٨٤. انظر التعليقات حول هذا البيان في: خير بك : ١٩٨٦، ص ص ٦٥-٦٩. وانظر مهدي: ١٩٨٨، ص ٣٣-٣٤. وانظر: باسيليوس،٢٠٠٣، ص١٤٦-١٤٧. وانظر: السالسي: ٢٠٠٤، ص ص١٩٢-١٩٣.

محاولة ترتيب القواعد والمنهجية الشعرية التي تدعو الحركة إليها؛ إذ يوصي الخال من خلاله ببعض الاقتراحات النظرية الأولية التي من شأنها القيام بشعر "طليعي تجريبي" يقوم على الأسس الآتية:

"أولاً: التعبير عن التجربة الحياتية على حقيقتها كما يعيها الشاعر بجميع كيانه-أي بعقله وقلبه معاً.

ثانيًا: استخدام الصورة الحية-من وصفية أو ذهنية-حيث استخدام الشاعر القديم التشبيه والاستعارة، والتجريد اللفظي، والفذلكة البيانية، فليس لدى الشاعر كالصورة القائمة على التاريخ أو الحياة وما يتبعها من تداع نفسي يتحدى المنطق ويحطم القوالب التقليدية.

ثالثًا: إبدال التعابير والمفردات القديمة التي استنزفت حيويتها بتعابير ومفردات جديدة مستمدة من صميم التجربة ومن حياة الشعب.

رابعًا: تطوير الإيقاع الشعري العربي وصقله على ضوء المضامين الجديدة، فليس للأوزان التقليدية أية قداسة.

خامسًا: الاعتماد في بناء القصيدة على وحدة التجربة والجو العاطفي العام لا على التتابع العقلي والتسلسل المنطقي.

سادسًا: الإنسان في ألمه وفرحه، خطيئته وتوبته، حريته وعبوديته، حقارته وعظمته، حياته وموته-هو الموضوع الأول والأخير. كل تجربة لا يتوسطها الإنسان هي تجربة سخيفة مصطنعة لا يأبه لها الشعر الخالد العظيم.

سابعًا: وعي التراث الروحي-العقلي العربي وفهمه على حقيقته وإعلان هذه الحقيقة وتقييمها كما هي دونما خوف أو مسايرة أو تردد.

ثامنًا: الغوص إلى أعماق التراث الروحي-العقلي الأوروبي، وفهمه، والتفاعل معه.

تاسعًا: الإفادة من التجارب الشعرية التي حققها أدباء العالم. فعلى الشاعر اللبناني الحديث أن لا يقع في خطر الانكماشية كما وقع الشعراء العرب قديماً بالنسبة للأدب الإغريقي.

عاشرًا: الامتزاج بروح الشعب لا بالطبيعة. فالشعب مورد حياة لا تنضب، أما الطبيعة فحالة آنية زائلة. (مجلة "شعر"، ع٢، ١٩٥٧، ص٩٨-٩٩).

إن بنود الانطلاق الآنفة الذكر تكشف عن نية في وضع الأسس النظرية للتيار الحديث في الشعر العربي، وهي علاوة على ذلك تشكل القاعدة الفكرية الأولى لحركة "شعر" في طور نشوئها الأول. وعند مراجعة هذه البنود مراجعة فاحصة، نجدها ترتكز بشكل رئيس وربما لافت على "الوجود"، والعملية الشعرية وفق الرؤية الوجودية تفاعل مع الوجود الإنساني، في مختلف مستوياته الخارجية والداخلية. فمادة الشعر تنبثق عن تجربة عاطفية وعقلية تمارس محتويات الوجود. وأما لغة الشعر وإيقاعه، فهما ينبثقان من

كونهما أداة تعزيز للتفاعل بين عملية الخلق الشعري والوجود. ومن ثمَّ فإنّ اختيارهما يتبع لاعتبارات خدمة كل منهما لحركية هذه العلاقة.

وقد سعى الخال في ضوء الحركة التجديدية هذه إلى الحد من قداسة القوانين المتوارثة، ولهذا فهو يزيل العائق أمام التفاعل الإنساني مع التراث العربي على أساس التقييم العقلاني، وكذلك مع حضارات الشعوب الأخرى والإفادة من تجاربها الحضارية، وخصوصاً، تجاربها العقلية والأدبية. ومن هنا، يصبح تميّز الشعر بوصفه مادة إبداع، مرهوناً بما يقدمه لدفع هوية الوجود نحو التحرر والإنسانية.

لم يكن الخال ليلغي الدور الفاعل للتراث العربي في تكوين العملية الشعرية الحديثة، ولكنه يدعو إلى ربط هذا التراث مع إخضاعه إلى عملية نقدية عميقة، بل إلى غربلته إذا صح التعبير. فهو يدعو إلى الإبقاء على كل ما يصلح من هذا التراث عقلانياً ويمكن الإفادة منه، ويرفض مسبقاً كل ما فيه من تحديدات مسبقة. وينفذ الخال من خلال هذا البيان نحو العالميّة التي نادت بها حركة "شعر" كجزء من التفاعل الإنساني الكوني. ولهذا يبقى تقدم الشعر العربي اللبناني مرهوناً بمدى إفادته من التراث العالمي، الأوروبي منه على وجه التحديد. إذ تأتي هذه الدعوة ضمن محاولة الخال الخروج عن التراث العربي المحدود، وذلك من أجل إيجاد بديل حضاري عقلاني موازٍ للحضارة الغربية.

إن الخال في بيانه "لم يتطرق بشكل منهجي إلى بناء نظرية شعرية متكاملة تأخذ على عاتقها تحديد الأسس لعملية اختراق واضحة المعالم. وقد يرجع سبب ذلك إلى البلبلة التي رافقت حركة الشعر الحديث في تعريف نفسه وأهدافه. أو بكلمات أخرى حصل الاضطراب في طريقة انخراط النظريات الأدبية الأجنبية الغربية، وملاءمتها والواقعَ الحضاري الفكري العربي. فبقيت هذه النظريات محطّ تجارب شعرية لم ترافقها نظرية موجِّهة، بشكل موسّع وشامل. ومع ذلك يبقى بيان الخال الأول من نوعه الذي اختار الخروج في توصياته عن القواعد السابقة، خصوصاً فيما يتعلق برفض اللغة والإيقاع العربيين التقليديين، ونفي صفة القداسة عنهما ومزج الشعر في معركة الوجود الإنساني كندّ للفلسفة. ودعا هذا البيان بشكل جليّ وواضح، إلى التمثّل بالآداب الأجنبية كشرط لتطوّر الأدب العربي."(بواردي، ٢٠٠٣، ص١٤٨).

يوسف الخال والحداثة الشعرية:

إنَّ الحداثة [١] في مفهومها العام تقوم على "محاولة استكشاف التفاعلات المركبة للوجود من أجل

(١) للوقوف على مفهوم الحداثة وتفاعلاتها ومركباتها عربياً وعالمياً، انظر: (جبرا، ١٩٧٩، ص ص١١٧-١٤٢، وانظر: أدونيس، ١٩٨٣،ج٣). وانظر:(بنيس،١٩٨٨، ص ص١٠٩-١٣٠). وانظر: (الجابري،١٩٩١).

الوصول إلى ماهية حياة مستمرة ومتحركة، تسير في منحى مستقبلي لا يعرف الهدوء ولا المعايير الثابتة. والحداثة في حركتها المستمرة تصطدم والثابتَ المنبعث من إرهاصات ماضوية تحاول الإبقاء على وضعية المسلمات القبْلية. ويعد الرافد الثقافي في الحداثة أهم الروافد، عطاءً، لأنه الوحيد الذي يجمع بين المتخيّل الإنساني وواقعه المعاش، وهو دائم البحث عن حياة إنسانية أفضل، لذا فهو ينحو، أولاً، منحى الغوص في أعماق إنسانية لاستجلاء حركيتها، وثانياً، منحى الفردانية والشخصانية التي تميز الفرد عن الجماعة، وتعيد تعريفات انتمائه لها. فالفرد/ الشخص، في سياق الحداثة، ينتمي إلى الجماعة من خلال فرادته المبدعة وينسجم معها، طوعاً، لكن دون امتزاج يفقده هويته الشخصية." (بواردي،٢٠٠٣، ص٢).

لقد ظلت مسألة تخلف العالم العربي وفقدان الحداثة فيه، من أبرز المسائل التي انشغل بها الخال، فطالما شكا الخال هذا الوضع المتردي في كثير من كتاباته وتصريحاته العديدة، فهو يقول: "إن روح العصر الحديث [...] بقيت على هامش حياتنا القديمة المهترئة البالية وظل أثرها عاجزاً حتى الآن، عن تغيير حياتنا وبعث روح الجدة والابتكار في نفوسنا وعقولنا".(الخال، مجلة شعر، ع٥، ١٩٥٧، ص٣٧٦، نقلًا عن: السالسي، ٢٠٠٤، ص١٥٤، ١٥٥)، وفي مدخل كتابه "الحداثة في الشعر" يقول أيضاً:" أمّا أن يصبح العالم الحديث عالمنا، أي أن لا يقوم بيننا وبينه حاجز فلا يعني أننا أصبحنا تماماً فيه، أي إننا تبنينا جميع معطياته ومفاهيمه (الصالح منها والطالح)، في حياتنا. فلو كان الأمر كذلك، لما كانت القضية المصيرية التي تجابه العرب اليوم على اختلاف بيئاتهم، هي: كيف ننشئ مجتمعاً حديثاً في عالم حديث. هذا التناقض بين كوننا شكلاً في العالم الحديث وبين كوننا جوهراً في خارجه، يضطرنا إلى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث، ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم."(الخال،١٩٧٨، ص٥- ٦).

لقد حاول الخال أن يبرز أهم عناصر ومقومات الحداثة في مقالة له بعنوان "الحداثة نظرة حديثة إلى الوجود"، إذ يقول: "مهما قيل في الحداثة يظل القول الأهم فيها أنها في كل شيء لا في الشعر وحده، موقف كياني من الحياة في المرحلة التي نجتازها. فهي ليست أشكالًا يقتبسها الإنسان أو زيًا يتزيّا به، لأن المهم هو ما وراء الأشكال والأزياء. هذا الماوراء هو ما نسميه بالعقلية". (الخال: ١٩٧٨، ص١٦). ومن هنا، فإنّ العقلية الحديثة تعني من وجهة نظر الخال، أن يأخذ الإنسان بالجوهر لا بالمظهر. وليست مظاهر الحياة الحديثة التي غزت البلاد العربية جوهر الحياة الحديثة، بل الأخذ بأسبابها الروحية والعقلية. وقد ركز الخال على ضرورة أن يحيا الإنسان العربي حياة العقل. فالخال يسجل موقفه هذا في افتتاحية بعنوان: "حياة العقل"

نشرها في مجلة "آفاق"، إذ يقول:" لكي نحيا حياة العقل، علينا أن نحرر العقل-نحرره من قيود السلفية والنقل[...] ونحرره أيضاً من ربقة الجهل[...] جهل المبادئ والأصول الأولى لكل علم وأدب وفن. ونحرره أيضاً من أنفسنا: من الذاتية التي تنغلق على الفراغ وترفض النقد،[...] ولكي نحيا حياة العقل، علينا أن نؤمن بالعقل- بقدرته على المعاينة الحقيقية ورؤيتها والخضوع لها[...]. ولكي نحيا حياة العقل علينا أن ندخل شراكة العقل في التاريخ وفي العصر، فالعقل المنقطع المنعزل المكتفي بنفسه، لا يكون[...]. هذه الشراكة تتخطى القومية والدين وتتجاوز الحدود والسدود[...]. فالانكماش على الذات والخوف من الانفتاح، والاختباء وراء التقديس والتحريم مناخ لا يترعرع فيه العقل أو تنهض الحضارة...". (الخال، مجلة آفاق، ع ٢:١، ١٩٥٩، ص٣-٤، وانظر: السالسي، ٢٠٠٤، ص١٥٤، ١٥٥).

وفيما يتعلق بالحداثة الشعرية، فإنّ الخال لا يفتأ يقدم تصوراته عنها ومن ذلك قوله: "الحداثة في الشعر إبداع وخروج به على ما سلف وهي لا ترتبط بزمن. فما نعتبره اليوم حديثًا يصبح في يوم من الأيام قديماً. وكل ما في الأمر أن جديداً ما طرأ على نظرتنا إلى الأشياء فانعكس في تعبير غير مألوف... إلى أن يقول: والخلاصة أن الحداثة في الشعر لا تعتبر مذهباً كغيره من المذاهب، بل حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم ولا تكون وقفاً على زمن دون آخر. فحيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها فتتبدل نظرتنا إلى الأشياء، يسارع الشعر إلى التعبير عن ذلك بطرائق خارجية على السلفي والمألوف. فالمضامين والأشكال تمشي جنباً إلى جنب، لا في الشعر وحده، بل في مختلف حقول النشاط الإنساني أيضاً" (الخال، ١٩٧٨، ص ١٥، ١٧).

إنّ الحديث عن الخال ودوره البارز في حركة الحداثة الشعرية العربية المعاصر، لا يأتي، بأي حال من الأحول، منبتاً عن دور مجلته "شعر"، التي بدأ يؤسس لها بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٥٦، وهو دور يسعى، منذ البداية، إلى تأسيس مشروع نهضوي حداثوي حمل على عاتقه، الخروج بالحركة الشعرية العربية إلى آفاق أوسع وتفكير يُعنى بالأبعاد العميقة للتعبير الشعري، بحيث يَنْشُد هذا التعبير التحرر من سيطرة القديم كأمر مفروض مسبقاً.

إن ما يميز المشروع الحداثي الذي نهضت به حركة "شعر" وعلى رأسها يوسف الخال، تلك الرؤيا التجديدية التي فجرت إمكانات الخلق الشعري. وهي محاولة تجديدية تنضاف إلى ما سبقها من محاولات تجديدية، كان الشعر العربي قد شهدها مع أوائل القرن العشرين. إلى أن وصل أوجها في الأربعينيات من ذلك القرن. غير أن ما يميز رؤية حركة "شعر" هذه، وهي متزامنة مع تلك المحاولات التجديدية أنها جاءت

"بوعي أكثر جذرية وبرؤية أكثر شمولاً." (أدونيس،١٩٩٣، ص ٥٢).

إنّ الحداثة التي سعت حركة شعر إلى تأسيسها هي حداثة المضمون في العمل الشعري وهي بهذا تتجاوز حداثة الشكل التي تقف عند حدود التغيير والتلاعب بأنساق التفاعيل الخليلية.

ومن هنا، فإنّ يوسف الخال يسوّغ هذه اللهفة نحو تأسيس مضمون حديث مغاير بقوله: " فنحن في عصر نبحث فيه عن سبيل للخروج من الأزمة التي نعانيها من جرّاء فقدان إيماننا بالأسس القديمة التي كان يقوم عليها مجتمعنا الإنساني، أمام هذا البحث أليس من الطبيعي أن نتلهف للمضمون؟ ومن جهة ثانية كان النقد العربي منصرفاً إلى اللغة والأسلوب كأنما الأدب محض لغة وأسلوب، فقد كان هكذا بالفعل حين ركن أسلافنا إلى إيمانهم بالأسس التي قام عليها مجتمعهم فلم يعد أمامهم إلا الاجترار وابتكار الأساليب التي تقفهم على إتقان هذا الاجترار، أوَليس من الطبيعي إذن أن نتلهف نحن أبناء هذا الجيل الثائر الباحث للمضمون..؟"(الخال، مجلة شعر،ع٢٤، صيف ١٩٦٢، ص١٥١).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنَّ الثورة الفكرية والمضامين الشعرية التي كان الخال يدعو إليها من خلال مجلته "شعر"، ينبغي أن تستتبع بتطور لاحق للشكل، فقد فهم الخال أن المضمون الحديث هو الذي يخلق شكله المناسب المعبر عن تجربة الشاعر، وفي هذا الصدد يقول الخال:" فالشكل في الشعر على أهميته وضرورته تابع للمضمون وناجم عنه تماماً، كمل لو شئت تعبئة كمية معينة من القمح في كيس فأنت تأخذ الكمية وتبحث عن كيس يناسبها وبالطبع لا تفعل العكس وهكذا في الشعر يأتي المضمون أولاً، وأصالة المضمون أي صدق معاناته وتجربته يتطلب شكلاً أصيلاً يلائمه، ومراعاة لخصائص الشعر في الإيقاع والرهافة وخلق جو من التوتر والبهجة الروحية وحمل القارئ على المشاركة الكاملة في تجربة الشاعر ومعاناته."(الخال، مجلة "شعر"، ع ١٣، كانون الثاني،١٩٦٠، ص١١٨).

لقد تعرض الخال من خلال جهوده النقدية إلى جملة من المسائل التي شكّلت في مجملها نقلة حداثية على صعيد حركة الشعر العربي المعاصر. ولعل من أهمية بمكان، الإشارة إلى هذه المسائل، التي سأعرض إلى بعضها، كانت في بعض الأحيان تتقاطع ورؤية تجمع "شعر"، وهي في أحيان أخرى تختلف وتبتعد كثيراً أو قليلاً عن هذه الرؤية. ولا أدعي بأنني سأقف على مواطن التقاطع والاختلاف بين أعضاء حركة "شعر"، إذ يحتاج ذلك إلى مساحة واسعة، قد لا تتناسب وهذه الدراسة، بل سأكتفي هنا، بالوقوف المقتضب على مواقف الخال اتجاهها. ومن هذه المسائل:

- موقف الخال من التراث:

لقد جاء في موضع آنف من هذه الدراسة من خلال التعرض إلى بيان الخال "مستقبل الشعر العربي في لبنان"، ما يمكن أن يكشف عن موقف الخال من التراث. ولكي لا أنزلق في عيب التكرار، فإنني، هنا، أحاول استجلاء هذا الموقف من خلال ما تيسر لي من آرائه النقدية التي بثها في أعداد مجلة "شعر". هذا بالإضافة إلى آراء النقاد والدارسين الذين اهتموا بدراسة الخال نفسه.

يرى يوسف الخال أن التراث الحقيقي الذي ينبغي أن ننتمي إليه هو "التراث الكوني أو الإنساني."(الخال، مجلة "شعر"، ع٢٤، صيف ١٩٦٢، ص١٥٢). ومن هنا، يذهب الخال إلى أن التراث هو جهد الإنسان المتراكم عبر التاريخ في كل مكان وزمان، وهو يسميه بالحضارة الإنسانية الواحدة أو التراكم الثقافي أو نتاج العقل. وهذه الحضارة الإنسانية الواحدة يحمل لواءها الغرب وفي هذا الصدد يقول الخال:" فالحضارة الغربية هي حضارة الإنسان المتراكمة عبر التاريخ، وما نعتت بالغربية إلا لأنّ الغرب أو أوروبا قد أعطاها في الألف سنة الأخيرة أكثر مما أعطتها أي منطقة جغرافية أخرى." (هيئة التحرير: مجلة "شعر"ع١٥، صيف،١٩٦٠، ص١٣٩)؛ ولهذا، جاءت الدعوة إلى "تحقيق شراكة تراثية إنسانية"، من خلال "التواصل الفعال مع الشعر المعاصر في العالم." (هيئة التحرير: مجلة "شعر"ع٩، صيف١٩٦١، ص١١٧).

لقد أعلن الخال في رسالة بعث بها إلى سلمى الخضراء الجيوسي عن موقفه تجاه التراث عامة، بقوله: "لن يكون لنا مستقبل ما لم نعد إلى الإسهام في الحضارة الإنسانية من جديد". (الخال، مجلة "شعر"،ع١٥، ١٩٦٠، ص١٣٨). ونحن لا نستطيع أن نتمثل نشاط الخال على الصعيد الثقافي، وتقييمه إلا من هذا المنطلق، فمنذ أن أسس الخال مجلة "شعر" ركز على ضرورة تجاوز مقولة أن التراث العربي تراث مستقل مكتف بذاته ويشكل واقعاً نهائياً.

وفيما يخص قضية التراث في شعر الخال فقد تصدى لها في مجموعته "البئر المهجورة، إذ نجد في بعض قصائدها كقصيدة "الدارة السوداء"، وقصيدة "الحوار الأزلي" صوراً شديدة الواقعية والتشاؤم، على الرغم مما فيها من أمل بالخلاص. وقد استعمل الخال" صوراً مختلفة لوصف حالة التراث العربي يمكن إعادتها جميعها إلى نمط واحد يتألف من وجهين متضادين، كأنه بهذا التضاد الجدلي الذي يذكرنا بالفكر الهير قليطي، أراد إجلاء الحقيقة، أي ما هو عليه التراث وما يجب أن يكون. وأهم هذه الصور: الجفاف والمطر، السفر والعودة، الموت والقيامة، الهجران واللقاء." (السالسي،٢٠٠٤، ص١٥٨).

ومن الأهمية بمكان أن نقف مرة أخرى عند رسالة الخال إلى "الجيوسي"، حيث يقول فيها: "إن آلهة العالم العربي قد ماتت، والثوريون الحقيقيون هم الذين أدركوا أنها قد ماتت فعمدوا إلى دفنها لكي تبعث من جديد آلهة تجسد أحلام الجيل وآماله كما تجسد واقعه ومصيره [...]، ألم يدفن العرب آلهة الجاهلية؟ أفلا تظنين أننا في نهضتنا أو ثورتنا الحاضرة نحو حياة أفضل يجب أن ندفن آلهة جاهليتنا في سبيل بعث آلهة حية متجددة على صورتنا اليوم ومثالنا؟" (الخال، مجلة "شعر"، ع١٥، ١٩٦٠، ص١٤٠).

فالخال هنا يشبه التراث بالآلهة. وهو بهذا التشبيه يلمّح إلى هالة التقديس التي تحيط بالتراث العربي وليس هذا فحسب، بل ربما كان يقصد إظهار التواصل التاريخي ووحدة التراث منذ الوثنية القديمة المشار إليها بالآلهة، حتى العصر الحاضر الذي يسوده الإيمان بإله واحد. ولكن جوهر الفكرة يكمن في حقيقة الخلاص. ويلاحظ أن الخال في هذه المقابلة بين موت الآلهة وقيامتها، وموت التراث وقيامته، يضع يقينه ببعث التراث العربي على مستوى واحد مع إيمانه الثابت بقيامة المسيح. وفي سبيل إعادة سير الخلاص على الأرض.

وفي نهاية هذه الوقفة المقتضبة على موقف الخال من التراث، لا بدّ من التأكيد على أنَّ الخال لم يكن يدعو إلى إلغاء دور التراث العربي في تكوين العملية الشعرية الحديثة، ولكنه يدعو إلى إخضاعه إلى عملية نقدية عميقة هذا بالإضافة إلى ضرورة ربطه مع التراث الإنساني الكوني. ولهذا، فهو يدعو إلى الإبقاء على كل ما يصلح من هذا التراث عقلانياً ويمكن الإفادة منه، ويرفض مسبقاً كل ما فيه من تحديدات مسبقة. وتأتي هذه الدعوة ضمن محاولة الخال الخروج عن التراث العربي المحدود، وذلك من أجل إيجاد بديل حضاري عقلاني موازٍ، للحضارة الغربية.

- موقف الخال من اللغة:

ظلت قضية اللغة هاجساً عالقاً في تنظير يوسف الخال النقدي في مرحلة ما قبل إنشاء مجلة "شعر"، وأثناء صدورها، وحتى بعد توقفها عن الصدور، حيث برزت هذه القضية هماً حداثياً لم يستطع الخال تجاوزه، بل أوقعه في شرك فشل تجربة مجلة "شعر" التي اصطدمت، حسب تعبيره بجدار اللغة.

وإذا ما انتقلنا إلى مجلة "شعر"، فإننا نجد ثمة توجهاً نحو تبني العامية وإعطائها دوراً مجاوراً للغة الفصحى في الشعرية العربية، فعلى الرغم من أن هذا التوجه لم يفصح في بداية الأمر عن ذاته في شكل تنظير نقدي إلا أن نشر قصيدة "كزبي" (طراد، مجلة "شعر"ع١، نيسان،١٩٥٧، ص٢٠-٢١). باللهجة اللبنانية لميشال طراد لا يخلو من دلالة. (انظر: أبو سيف:٢٠٠٥، ص١٨٦. وانظر: خير بك:١٩٨٦، ص٨٧).

إنّ الوثيقة الأولى التي تعرض لمشكلة اللغة بصورة مباشرة، تلك التي جاءت في (العدد الرابع من مجلة "شعر")، ففي هذا العدد، نشر الخال مقالة نقدية عن مجموعة من القصائد العامية لميشال طراد، وتبدو أهمية هذه المقالة نابعة من كونها مكتوبة باللغة المحكية. غير أنَّ المهم، هنا، هو الإشارة إلى نقطتين أساسيتين فيها:

أولاها: التأكيد على حرية التعبير التي يتيحها استخدام اللغة المحكية للشاعر، بما أنّ هذه اللغة لم تتلق ثقل الموروث التقليدي، و"ميراث الإتباع والمحاكاة".

ثانيتها: اقتناع المؤلف بأنّ هذه اللغة وإن لم "تتجاوز بعد مستوى اللهجة المحكية"، فإنها ستشكل "حجر زاوية المستقبل. (انظر: خير بك،١٩٨٦، ص٨٧).

شكّلت قصيدة "كزبي" لميشال طراد، وكذلك مقالة الخال، وكلتاهما مكتوبتان باللهجة المحكية، توجهاً مستتراً من الخال في الترويج للكتابة بالعامية، والذي أفصح عنه بشكل مباشر في كلمته التي ألقاها في مؤتمر روما للأدب الذي انعقد عام ١٩٦١، حيث ذهب الخال إلى ضرورة فضّ التناقض الصارخ الذي يعانيه الأدب العربي بين كونه شكلاً في العالم الحديث وجوهراً خارجه مما اضطره إلى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث، ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم. (انظر: خير بك،١٩٨٦، ص٨٨).

ركز الخال أثناء تطرقه إلى العوائق التي تواجه النشاط الأدبي في العالم العربي على الصعوبات اللغوية التي يواجهها الكاتب العربي، والتي تتمثل بكون هذا الكاتب يرجع إلى ثلاث "لغات" مختلفة حينما "يفكر ويتكلم ويكتب" يقول الخال: فنحن نفكر بلغة، ونتكلم بلغة، ونكتب بلغة"(أبو سيف،٢٠٠٥، ص١٨٨)، وهو يرى "في إصرار العرب على الإبقاء على اللغة في سباتها" دليلاً آخر على أن العقل العربي ليس "عقلاً حديثاً" ولا "عقلاً علمياً، بما إنه يُخضع الواقع الموضوعي إلى رغباته الذاتية. (انظر: خير بك،١٩٨٦، ص٨٨).

إنَّ الحل "الحداثي" الذي يراه الخال منقذاً للأدب العربي في تعبيره الحي والحر هو استعمال "اللغة المحكية" المتطورة على ألسنة شعوبها، فهذه هي لغة الحاضر والمستقبل واستخدامها في الكتابة كما في الحديث أمر محتوم، وعندئذ نتغلب على هذه الصعوبة الأساسية في وجه أدب عربي حي، مبدع، حديث. (انظر: أبو سيف،٢٠٠٥، ص١٨٨).

حاول الخال أن يجعل من "اللغة الفصحى" جداراً وعائقاً أمام تقدم حداثة الشعر العربي المعاصر، داعياً إلى أن هدم هذا الجدار لا يكون إلا باستحضار التجربة الشعرية الغربية بأبعادها كافة.

وقد استمر الخال بعد إيقاف مجلة "شعر"[١] عن الصدور ينتهز كل فرصة للتبشير "باللهجة المحكية"، وقد ترك الكتابة باللغة العربية الفصيحة وصار يكتب باللهجة المحكية، وبهذه اللهجة أصدر كتاباً هو "الولادة التانية"، وكتب مجموعة قصائد بعنوان" مذكرات كلب".

الخاتمة

لقد استطاع الشاعر والناقد العربي يوسف الخال أن يؤسس لمشروعه الحداثي بشقيه الإبداعي والنقدي على حدٍّ سواء، وذلك بوصفه يشكل أحد أبرز الشعراء العرب الحداثيين في حقبة خمسينيات القرن العشرين، وهو من الناحية النقدية، يمثل أحد أبرز المنظرين لحركة الحداثة الشعرية العربية التي رافقتها آنذاك.

وقد مكّنت إقامة الخال في أمريكا ضمن البعثة اللبنانية إلى الأمم المتحدة، من الاطلاع على أوجه النشاط الشعري المختلفة، وما رافقها من حركات تجديدية تؤسس للحداثة الشعرية الغربية، هذا إذا ما أضفنا إليها تجاربه وثقافته التي سبقت هذه البعثة، من خلال اطلاعه على الشعر العربي الجديد في مختلف اتجاهاته، كل ذلك أسهم في تشكل نواة تجربة الشاعر الأدبية التي أثّرت فيما بعد على توجهاته الأدبية فيما يتعلق بالتعامل مع الموروث واللغة والتخطي.

ومن النتائج التي خلصت الدراسة إليه يمكن أن نجملها على النحو الآتي:

أولًا: إنّ ممارسة الخال للنشاط النقدي أتاح له تمرسًا أكثر عمقًا في خفايا الأثر الفني الشعري، وهو ينطلق من أهمية النقد للشاعر الحديث، ولاسيما أنه يضطر في حالات كثيرة للدفاع عن نماذج كتابته، أو عن طريقه الإبداعي الجديد، الذي يجابه في كثير من الأحيان بالرفض.

ثانيًا: لقد آمن الخال منذ اللحظة الأولى لانطلاقة مشروعه الحداثي من ضرورة توافر الأداة الحقيقية التي تتبلور من خلالها حركة الحداثة الشعرية، فكانت مجلة "شعر" التي أسسها على غرار مجلة (Poetry) الأمريكية هي الحاضنة الحقيقة التي استقبلت تلك المحاولات الشعرية الجديدة.

ثالثًا: وفيما يتعلق بعلاقة الخال بالتراث، فقد لاحظت الدراسة أنّ الخال لم يكن ليلغي الدور الفاعل

---

(١) صدرت المجلة في أربعة وأربعين عدداً، في إحدى عشرة سنة غير متتالية، ويمكن إذ ذاك الإشارة إلى مرحلتين في حياة "شعر" المرحلة الأولى: وامتدت من شتاء عام ١٩٧٥، حتى العدد٣١/ ٣٢، صيف خريف العام ١٩٦٤. وهي مرحلة أساسية للمجلة، كانت فاعليتها وتأثيرها على الساحة الأدبية من الأهمية، بحيث شكلت مختبراً لنضوج الحداثة العربية الناشئة والمتخبطة بين التبعية والأصالة، أما المرحلة الثانية، فامتدت من العدد ٣٣/ ٣٤، شتاء -ربيع العام ١٩٦٧، حتى العدد ٤٤، خريف عام ١٩٦٩. انظر: (بواردي: ٢٠٠٣، ص ص٤٨،٤٧).

للتراث العربي في تكوين العملية الشعرية الحديثة، ولكنه يدعو إلى ربط هذا التراث مع إخضاعه إلى عملية نقدية عميقة، وهو يدعو إلى الإبقاء على ما يصلح من هذا التراث عقلانيًّا ويمكن الإفادة منه، وهو يرفض مسبقًا كل ما فيه من تحديدات مسبقة. ويذهب الخال إلى أن التراث الحقيقي الذي ينبغي أن ننتمي إليه هو التراث الكوني أو الإنساني.

رابعًا: لقد شكّلت قضية اللغة منذ انطلاقة مشروع الخال الحداثي، هاجساً عالقاً في تنظيره النقدي، حيث برزت هذه القضية هماً حداثياً لم يستطع الخال تجاوزه، بل أوقعه في شرك فشل تجربة مجلة "شعر" التي اصطدمت، حسب تعبيره، بجدار اللغة. ولعل الحل "الحداثي" الذي يراه الخال منقذاً للأدب العربي في تعبيره الحي والحر هو استعمال "اللغة المحكية" كلغة أدبية فاعلة.

ومهما يكن من أمر، يبقى أن نقول: لقد ظلت جهود الخال المبكرة في حركة الحداثة الشعرية والنقدية، تلقي بظلالها وتداعياتها على مسيرة الحركة الأدبية والنقدية العربية إلى يومنا هذا.

المراجـــع

أدونيس، علي أحمد سعيد: *الثابت والمتحول بحث في الإتّباع والإبداع عند العرب*، ج٣، بيروت، دار العودة، ١٩٨٣.

أدونيس، علي أحمد سعيد: *صدمة الحداثة*، ط٢، بيروت، دار العودة، ١٩٧٩.

أدونيس، علي أحمد سعيد: *ها أنت أيها الوقت*، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٣.

بنيس، محمد: *حداثة السؤال: بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة*، بيروت، المركز الثقافي العربي،١٩٨٨.

بواردي، باسيليوس حنا: *مجلة شعر والحداثة الشعرية العربية*، أطروحة دكتوراه، جامعة حيفا، ٢٠٠٣.

جبرا، إبراهيم جبرا: *ينابيع الرؤيا*، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٧٩.

الجابري، محمد عابد: *التراث والحداثة: دراسات ومناقشات*، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،١٩٩١.

الخال، يوسف: *قصائد في الأربعين*، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦٠.

الخال، يوسف: *الحداثة في الشعر*، ط١، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٨.

الخال، يوسف: *الأعمال الشعرية الكاملة*، ط٢، بيروت، دار العودة للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٧٩.

خير بك، كمال: *حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر-دراسة حول الإطار الاجتماعي-الثقافي للاتجاهات والبُنى الأدبية*، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٦.

زراقط، عبدالمجيد: *الحداثة في الشعر العربي المعاصر*، ط١، بيروت، دار الحرف العربي للطباعة والنشر،١٩٩١.

السالسي، جاك أماتايسس: *يوسف الخال ومجلته شعر*، ط١، بيروت، دار النهار بالتعاون مع المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ٢٠٠٤.

أبو سيف، ساندي سالم: *قضايا النقد والحداثة دراسة في التجربة النقدية لمجلة (شعر) اللبنانية*، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.

مهدي، سامي: *أفق الحداثة وحداثة النمط-دراسة في حداثة مجلة شعر بيئة ومشروعاً ونموذجاً*، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، ١٩٨٨.

الدوريات:

الخال، يوسف: "*رسالة إلى سلمى الخضراء الجيوسي*"، مجلة "شعر" ع(١٥)، (١٩٦٠).

الخال، يوسف: "*قضايا الشعر المعاصر لنازك الملائكة*"، مجلة "شعر"، ع(٢٤)، (صيف ١٩٦٢).

الخال، يوسف: *مستقبل الشعر في لبنان*، "محاضرات الندوة اللبنانية، مجلة "شعر" ع(٥)، (١٩٥٧).

طراد، ميشال: "*كزبي*"، مجلة "شعر"، ع(١)، (نيسان،١٩٥٧).

لؤلؤة، عبدالواحد: "*فضية الشعر الحر في العربية*"، مجلة "شعر"، ع (٤٣)، (صيف ١٩٦٩).

هيئة التحرير: "*أخبار وقضايا*"، مجلة "شعر" ع(١٥)، (صيف،١٩٦٠).

هيئة التحرير: "*أخبار وقضايا*"، مجلة "شعر" ع(٩)، (صيف، ١٩٦١).

هيئة التحرير: مجلة "الآداب"، بيروت، ع (١١)، (١٩٥٩).

هيئة التحرير: مجلة "الآداب"، بيروت، ع (٢٢)، (١٩٦٢).

هيئة التحرير: مجلة "شعر" بيروت، لبنان، ع(٢)، (١٩٥٧).

هيئة التحرير، "*أخبار وقضايا*"، مجلة "شعر"، ع (١٣)، (كانون الثاني، ١٩٦٠).